قصة :

هـــذيان مجنون !

للأستاذ علي الطنطاوي

ذهبت منذ أيام أزور (المستشفى الإسلامي) الكبير ، الذي تعاونت على إنشائه الجمعيات الإسلامية الأربع في دمشق (الفراء، والهداية ، والشبان ، والتمدن) ، فوجدته شيئاً عظيماً يرفع الرأس ، بناء ضخما يطل على الربوة من هنا ويشرف على سهل المزة من هناك ، قد قام حيث كانت تقوم تلك (القلاع العادية) ، فكان من تمام نعمة الله علينا به أن تحير له هذا المكان ، فأبدلنا بمهارات الموت ، وبنايات البلاء ، تلك القلاع ، هذا المستشفى ، بيت الصحة ، ودار الشفاء ...

وجعل المدير ، وهو شاب مسلم رضي الخلق ، واسع الخبرة ، يدور بي في المستشفى ، ويمر بي على شعبه ، حتى إذا وصلنا إلى جناح الأمراض العقلية قال لي :

— إن ها هنا مريضاً يلح علينا أن ندعوك إليه ، وهو لا يفتأ ينادي باسمك ويرجو أن يراك ...

قلت : ومن هو ؟ وما شأنه بي ؟

قال : هو شاب مصاب بنوع من الهستريا (الجنسية) ، وهو يزعم أنه تلميذك ، وأنه وثيق المعرفة بك

فلم أحب أن أخيب رجاءه ، وإن كنت لا أدري ما أصنع له ، وانطلقت مع المدير حتى دخلت عليه ، فإذا هو شاب حديث السن ، شاحب اللون ، بادي الضعف ، شارد النظرات مسجّى ، لا يبدو منه إلا وجهه ، فتأملته ... فإذا هو قد كان تلميذاً لي ، وإذا أنا أعرفه ، فسلمت عليه فردّ السلام ، وابتدرني فقال لي :

— أنت أستاذي ، وإني أرتقب مجيئك . إن لي إليك حاجة

قلت : مقضية إن كنت أقدر عليها

فظهر على وجهه خيال البشر ، ولاحت على شفتيه ظلال ابتسامة ... وقال :

— لقد نعشتني وبشرتني ، إن الذي أريده منك ، هو أن تعي حديثي وتنشره في الناس ، أفلا تقدر على ذلك ؟

قلت : بلى ، أقدر إن شاء الله ...

* * *

قال : إنه خبر لا يكاد يصدقه أحد ، ولكني أحلف لك أنه واقع ، وإذا شككت فاسأل القرية ، أتعرف قرية (الجالية) ؟

قلت : ما سمعت باسمها إلا الآن !

قال : لقد أردت أن أبتعد عن مرابع المصطافين ومواطن الازدحام إلى بلد أطلق فيه نفسي على سجيتها ، لا أقيدها بقيد عادة ولا واجب مجاملة ، فأممت بحيرة (العتيبة) ، ثم صعدت (جبل عيرام) ، حتى بلغت هذه القرية المختبئة في كنف واد عميق لا يصل البصر إلى قرارته ، يجري في بطنه نهر (العامون) متحدراً هائجاً يقفز من صخرة إلى صخرة ، فيكون له دوي وخرير ، ويعلوه الزبد فتراه من خلال الأشجار ، وأنت في القرية ، كأنه البلور المذاب ، إذا كنت قد رأيت في زمانك بلوراً مذاباً ؛ يحمي هذا الوادي المسحور جبلان عاليان تتطح ذراهما النجم ، وقد لبست سفوحهما وحدورها ثوباً من الشجر أخضر ، توارت خلاله هذه القرية ...

واتخذت فيها داراً سلخت فيها شهراً من شهور الصيف ، لم أعرف السعادة إلا فيه ، ولم أدر حتى عشته ما لذة العيش وما الاطمئنان ، فلقد كنت أغدو مع النور فأصعد في الجبل أحمي الشمس البازغة حين تشرق على الدنيا ، وأهبط الضحى إلى بطن الوادي فأتخذ لي مكاناً على صخرة عالية ، أو أقعد على حافة النهر الفياض . وكنت في أكثر الأيام أمنع طعامي في سلة وأرتاد المرابع ، فحيثما استطبت المكان أقمت . وكنت أحمل معي كتاباً أقرأ فيه مرة ، وفي مصحف الكون أخرى ، فأمتع النظر بأعجب المشاهد وأبهى المرائي ، ثم أروح العشية إلى داري ، وقد طفحت نفسي بصور الجمال ، وفاض جسمي بالعافية ...

... حتى جاء ذلك اليوم الذي صبّ في كأس حياتي العلقم !

* * *

لقد صعدت في الجبل على عادتي حتى جاوزت حدود القرية ، وقاربت ينبوع (البارة) ، وبلغت الغابة المهجورة التي تطيف به ، فما راعني إلا الحجارة تتساقط حولي كأنها المنجنيق ، تنزل دراكا نزول رصاص الرشاشات ، فخرت لحظة ، ثم وليت هارباً أعدو ما أطقت العدو ، حتى وصلت إلى صخرة فاحتميت بها ، وجعلت

أنظر : ما خبر الحجارة ! فأسمع قهقهة مرعبة ... فأحسب أنها الجن تروعني ... ثم أرى امرأة تخرج من بين أشجار الغابة ، وتسير حذرة تتلفت ، فلما صارت قريبة مني ، رأيتها وهي لا ترانى ، فإذا هي فتاة سمراء محلولة الشعر ، ذات جمال يروع الناظر ويأسر القلب ، لها عينان سوداوان واسعتان ... إذا نظرت بهما إليك أحسست بهما فى الفؤاد ، وجسم ممشوق قد لوحته الشمس ، وما عليها إلا أسمال بالية لا تكاد تستر إلا الأقل منها ، فكأنما جسمها فيها البدر قد حجبته قطع من المزن الرقراق . لها كتفان مدوران ممتلئتان ، وثديان ما نهدت قبل أن أراهما كيف يكون الثديان كالرمانتين حقاً ، وصدر رحب كأنه خلق مهداً للحب ، وساقان وفخذان لا أحب أن أؤذيك بوصف فتنتهما وجمالها ... !

وقد وقفت كالغزال المذعور ، لا أقولها كما يقولها الأدباء المقلدون ، بل أنا أعنى ما أقول ، ولا أجد صفة هي أدنى إليها وأعلق بها ... وجعلت تنظر حواليها ... فلما اطمأنت ألقت حجارتها التى كانت تحملها ، وقعدت على الأرض . ونظرت إليها ، فإذا ذلك الغضب الفاتن يسقط برقق عن وجهها ويسدل عليه نقاب من الألم ، الألم العميق الداهل ، فازدادت به جمالا حتى لقد تخيلتها فى قعدتها تلك تمثالا للجمال الحزين قد افتنت فيه يدا عبقري وعقله ... فخرجت من مكانى وسرت إليها متلصصاً أسارق الخطو حتى إذا كدت أن أصل إليها وأضمها ، أحسيت بى فوثبت وثبة ابتعدت بها عنى ، ثم عدت تلقاء الغابة ...

... وجعلت أرتاد هذا المكان كل يوم ، أفتش عنها وأطلبها حتى أنست بى واتصل بيننا الحديث ... فسمعت لهجة فتاة ليست من بنات القرى ، ولا من الجاهلات ، ولكن حديثها حديث المجانين ... !

* * *

سألتها ما شأنها ، وأحببت أن أعرف خبرها ، فكانت تجيبنى بكلام لا يعقل :

قالت : إنى أفتش عليه ، لقد دخلت المدن ، وولجت المدارس ، وبحثت فى القصور ، وطفت للملاهى ، وتهت فى البرارى ، وضربت فى الجبال ، وجست خلال الخرائب ، وسريت وحيدة ، حيث لا تجرؤ النسور أن تطير ... كل ذلك أملاً بلقائه !

قلت : بلقاء من ؟

قالت : بلقائه ... إنى أحس بصوته أبداً رن فى أذنى ، وأرى حينما سرت عينيه ، وألمس بدأ جلده الناعم ، فأشعر كأن الكهربا تسيل فى عروق ، ويطرف شيء إلى عينى ولكنه يحتبس فلا أستطيع أن أبكى ...

قلت : منذ كم فارقته ؟ وهل مات أو سافر ؟

قالت : أنت مجنون ... ما فارقته قط ولا اتصلت به ، هو معى إذا نمت ، ومعى إذا نمت ، أبكى لآلامه ، ويبتسم هو للذيذ أحلامى ، ويغضب فيخفق قلبى ، ويأكل فتذهب جوعتى ، ولكنى لا أقدر أن أضمه إلىّ ، ولا أستطيع أن ألمسه بشفتى !

ولو لم تكن أعمى لرأيته ، إن ريّاه فى عبق كل وردة ، وصوته فى كل أغنية ، وصورته فى صفحة البدر ، وسقاء الينبوع ، وخضرة الروض ...

قلت : فمتى عرفته ؟

قالت : منذ كان لى قلب ، لقد هممت به منذ وجدته فى فكرى ، وقد ملأ علىّ نفسى ، ولكنى لا أدرى أين يقيم ، إنى أراه فى اليوم على ألف شكل ، أرى فى الرجل يمر بى عينيه ، وأرى فى آخر قامته ، وربما استحال معنى من المعانى أحس به ولا أملك التعبير عنه ...

قلت : فمن يدلك عليه ؟

قالت : قلبى ، ألا تفهم ، أليس لك قلب ؟ يدلنى على خفقاته ، هو الجمال كله ، فكل ما أرى من الجمال جماله ...

ثم سكتت وأرخت أهداب عينيها ، وغابت فى ذهلة عميقة ، فدنوت منها وضممتها إلىّ وأرحت ذينك النهدين على صدرى ، فاستجابت لى وتعلقت بى ، ووضعت قلبها فى شفتيها ، ووضعت قلبى على شفتى ، ثم ذقت منها قبلة ، ما أظن أن إنساناً ذاق مثلها .

ولكنها انتفضت فجأة ، وألقت برأسى على صخرة ، فشجته وانطلقت لا تلوى على شيء ، ثم لم أرها ... وإن لم تغب خيالها عن عينى ...

* * *

ولما خرجنا من حضرة المريض قال لى مدير المستشفى :

لا تصدق كلمة مما قال ، إنه هذيان مجنون لم يقع منه شيء !

قلت : إن آخر ما يهتم به الأديب ، أن يقع الحادث أو لا يقع ، أنى أكتب قصة لا تاريخاً ، وحسبى ما فى قصته من جمال الوصف ، وإن لم يكن لها مغزى ، وإن كانت هذيان مجانين ...

قال : شأنك ... أنت أدرى به !

علي الطنطاوي